مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 08 عدد: 05 السنة: 2019
ص: 431- 445 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

البلاغة الصوتية للمدِّ والقصر في روايتي ورش وحفص
The Vocal Rhetoric of the Lengthening and the Shortening in the two Versions of "*Hafs*" and"*Warch*"

* صولح الطيب

Souleh Tayeb

جامعة عمار ثليجي بالأغواط الجزائر.

University of Laghouat/ Algeria

تاريخ الإرسال:2018/02/01	تاريخ القبول: 2019/10/27	تاريخ النشر: 2019/12/01

ملخص البحث

إنّ المدّ والقصر من الظواهر الصوتية التي تشتهر بها القراءات ككل؛ وذلك لغايات صوتية بحتة، فالمدّ هو أن تطيل زمن الصوت بحرف المد واللين بزيادة عن مقدار المد الطبيعي لأسباب معروفة عند القرّاء، والمد ليس بحرف ولا حركة؛ أي: أنه لا يؤدي إلى تغيير معنى الكلمة، لكنه يضيف لها أبعادا بلاغية، أما القصر فهو لفظ الحرف مع ترك تلك الزيادة، وإبقاء المد الطبيعي على حاله.

والهدف من المدّ والقصر أن يؤمن اللبس بواسطتهما أثناء القراءة، بإظهار الأصوات على حقيقتها، وتجنب تغليب صوت على آخر، وعوضا عن التقاء الساكنين، وللحرص على صوت اللين وطوله؛ لئلاّ يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام، فيطغى أحدهما على الآخر...بالإضافة إلى الغاية الجمالية للمد والقصر، بتنوع الصوت بأدائهما أثناء القراءة... فهذه الأبعاد الصوتية أدّت في حد ذاتها دورا بلاغيا، وأوحت بمعاني الألفاظ قبل أن نترجمها لغويا.

الكلمات المفتاحية: المدّ، القصر ، حفص، البلاغة الصوتية.

Abstract:

The lengthening and the shortening are vocal phenomena, which the reading versions as a whole are famous for; and that for the sake of purely acoustic purposes. The lengthening is achieved in order to prolong the duration of sound within the letter being lengthened, more than the natural amount of lengthening for reasons known to readers, and the lengthening is not a letter or movement, that is to say; it does not change the meaning of the word,- instead it adds to it rhetorical dimensions; whereas the shortening is

* صولح الطيب soulmoul@gmail.com

pronouncing the letter with leaving that increase, and keeps the natural lengthening unchanged.

The aim of the lengthening and shortening is to ensure that there is no confusion during the reading process, by revealing the sounds as they really are, avoiding the predominance of one voice over another, and to keep the sound of the softness and height, so as not to be affected by the proximity of the "*hamza*."These vocal dimensions in them selves played a rhetorical role, and suggested meanings of words before translating them linguistically.

Keywords: Lengthening, Shortening, Hafs, Vocal Rhetoric.

أولا:مقدمة:

إنّ المدّ والقصر من الظواهر الصوتية التي تشتهر بها القراءات ككل؛ وذلك لغايات صوتية بحتة، فالمدّ هو أن تطيل زمن الصوت بحرف المد واللين بزيادة عن مقدار المد الطبيعي لأسباب معروفة عند القرّاء، والمد ليس بحرف ولا حركة؛ أي: أنه لا يؤدي إلى تغيير معنى الكلمة، لكنه يضيف لها أبعادا بلاغية، أما القصر فهو لفظ الحرف مع ترك تلك الزيادة، وإبقاء المد الطبيعي على حاله.

ولقد اختلفت الرّوايتان ورش وحفص في أداء المدّ والقصر كمّا وكيفا؛ وفي هذا المبحث سوف نقدم تعريفا صوتيا للمدّ والقصر، ونركز على توجيه الاختلاف بين الرّوايتين فيهما؛ ثم نبحث عن البعد البلاغي لكل من المدّ والقصر.

ونرجو من ذلك أننا سلطنا الضوء على البلاغة الصوتية للمدّ والقصر في روايتي ورش وحفص، والله ولي التوفيق والسداد.

ثانيا:تعريف المدّ والقصر صوتيا:

1-**المدّ** لغة:"مدّ الميم والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على جَرّ شيء في طول، واتّصال شيء بشيء في استطالة، تقول: مدَدْت الشيء أمدُّه مَدًّا، ومَدَّ النهرُ، ومَدَّهُ نهرٌ آخر، أي: زاد فيه ووَاصله فأطال مدّته، وأمْدَدْتُ الجيشَ بمدَدٍ..."[1].

اصطلاحا: إطالة زمن الصوت بحرف المدّ واللين زيادة عن مقدار المدّ الطبيعي عند وجوب سبب"[2]، والمدّ "ليس بحرف ولا حركة؛ معناه: أنه لا يؤدي إلى تغيير المعاني"[3]، وفي "تخريج أحاديث السلسلة الصحيحة للألباني"عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه كان يقرئ رجلا فقرأ

الرجل:(إنما الصدقات للفقراء والمسكين) مرسلة، أي: مقصورة، فقال ابن مسعود:ما هكذا أقرأنيها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال:كيف أقرأكها يا أبا عبدالرحمن؟ فقال:أقرأنيها (إنّما الصدقات للفقراء والمسكين) فمدّها"[4]،و"أنّه سئل أنس –رضي الله عنه– عن قراءة النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: كان يمدُّ صوته مدّا"[5].

2–القصر:لغة:"الحبس والمنع ومنه قوله تعالى: {حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ } [سورة الرحمن آية : 71]، أي:محبوسات فيها"[6].

اصطلاحا:يقول ابن الجزري"ترك تلك الزيادة، وإبقاء المدّ الطبيعي على حاله."[7]

3–درجات المدّ:

"وللمدّ درجات أدناها المدّ الطبيعي الذي تكون فيه الحركة بمقدار حركتين قصيرتين، وتكون الواو بمقدار ضمتين، وتكون الياء بمقدار كسرتين، وهذا المفهوم الذي كان ابن جني قد عبّر عنه بدقة حين قال:اعلم أن الحركات أبعاض حروف المدّ، وقال:وأن الألف فتحة مشبعة، والياء كسرة مشبعة، والواو ضمة مشبعة"[8]، لذا نعبّر عن المدّ بتكرار الصوت الممدود على قدر حركات المدّ المقررة عند كل قارئ أو راوٍ، ففي قوله تعالى:الم:" المدّ للألف في وسط اللفظ قدر ست موجات صوتية، أي:فك ألف المدّ ست ألفات صغيرة مكونة ست موجات صوتية من جنس حركة الألف فتثبت هكذا: لاااااام"[9]، ونفس الأمر مع الميم إذا مدت فتكون هكذا:مييييييم، وكذلك النون فتقرأ:نوووووون.

4–أحرف المدّ:

الألف الساكنة المفتوح ما قبلها، مثل قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } [سورة البقرة آية : 2]، والواو الساكن المضموم ما قبله، مثل قوله تعالى: وَقُولُواْ [سورة البقرة آية : 58]، والياء الساكن المكسور ما قبله، مثل قوله تعالى: {يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي } [سورة الفجر آية : 24]، يقول ابن جني:"ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتي هن حروف تَوامّ كَوامل، قد تجدهن في بعض الأحوال أطول وأتمّ منهن في بعض، وذلك قولك:يخاف وينام، ويسير ويطير، ويقوم ويسوم، فتجد فيهن امتدادا واستطالة، فإذا ما أُوقعت بعدهن الهمزة أو الحرف المدغم ازددْنَ طولاً وامتدادا، وذلك نحو:يَشاءُ ويَداءُ، ويَسُوء ويَهُوء، ويجيء ويفيء"[10].

ثالثا:توجيه المدّ والقصر عند ورش وحفص:

مدّ كل من ورش وحفص المدّ المتصل والمدّ المنفصل؛ إلا أن ورشا كان أطول منه مدا،بمقدار ست حركات وينقصه حفص بمقدار حركة أو حركتين،أمّا مدّ البدل و مدّ اللين المهموز فاقتصر حفص على مده بحركتين بينما تنوع مده من اثنتين إلى أربعة إلى ست حركات عند ورش، ولقد علل ابن جني سبب المدّ قبل الهمزة بقوله:"فالهمزة نحو كساء ، ورداء، وخطيئة ورزيئة ، ومقروءة، ومخبوءة، وإنما تمكن المد فيهن مع الهمز أن الهمزة حرف نأي منشؤه، وتراخي مخرجه، فإذا أنت نطقت بهذه الأحرف المصوّتة قبله، ثم تماديت بهن نحوه طلن، وشعن في الصوت، فوفين له، وزدن في بيانه ومكانه"[11].

وفي المدّ اللازم الذي نقصد به أن يكون بعد حرف المدّ أو اللين سكون أصلي وقفا ووصلا، فعلل ابن جني المشدد منه بقوله:"وأما سبب نَعْمتهنّ ووفائهن وتماديهِن إذا وقع المشدّد بعدهن فلأنهن . كما ترى- سواكن، وأوّل المثلين مع المشدد ساكن، فيجفو عليهم أن يلتقي الساكنان حشوا في كلامهم، فحينئذ ما ينهضون بالألف بقوّة الاعتماد عليها، فيجعلون طولها ووفاء الصوت بها، عوضا ممّا كان يجب لالتقاء الساكنين: من تحريكها، إذا لم يجدوا عليه تطرّقا، ولا بالاستراحة إليه تعلّقا، وذلك نحو شابّة، ودابّة،...وإذا كان كذلك فكلّما رسخ الحرف في المدّ كان حينئذ محفوظا بتمامه، وتمادى الصوت به، وذلك الألف، ثم الياء، ثم الواو"[12].

ومن المحدثين نجد د.إبراهيم أنيس قد علل ظاهرة المدّ بقوله:"أما السرُّ في هذه الإطالة فهو . كما يبدو لي- الحرص على صوت اللين وطوله، لئلا يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام؛ لأن الجمع بين صوت اللين والهمزة كالجمع بين متناقضين، إذ الأول يستلزم أن يكون مجرى الهواء معه حرا طليقا، وأن تكون فتحة المزمار حين النطق به منبسطة منفرجة، في حين أن النطق بالهمزة يستلزم انطباق فتحة المزمار انطباقا محكما يليه انفراجها فجأة، فإطالة صوت اللين مع الهمزة يعطي المتكلم فرصة ليتمكن من الاستعداد للنطق بالهمزة التي تحتاج إلى مجهود عضوي كبير، وإلى عملية صوتية تباين كل المباينة الوضع الصوتي الذي تتطلبه أصوات اللين"[13].

أمّا بالنسبة إلى المقدار الصوتي الذي يستغرقه المدّ؛ فقد قدره علماء التجويد بالحركات؛ لأنّ "أهم ما تتميز به حروف المد هو قابليتها على الامتداد بعد أن تستوفي نصيبها من المدّ الذي ينقلها من الحركة إلى الحرف، بخلاف غيرها من الأصوات الجامدة، لا سيما الشديدة (الانفجارية) فإنها آنية الحدوث، وكذلك الرخوة (الاحتكاكية) فإنها وإن كانت زمانية يمتد بها الصوت مدة،

لكن ذلك الامتداد لا يبلغ مقدار ألف، أي:مقدار نطق حرف المدّ"[14]، وإذا حاولنا حساب الزمن الذي يأخذه المدّ أثناء القراءة؛ فقد قال د.سمير شريف استيتية في حسابه المد المنفصل:" وقد تبين لي بعد قياس المدود بأنواعها على جهاز CSL المحوسب، وهو من أحدث الأجهزة الصوتية، أن مدة المدّ الطبيعي للألف المتبوعة بهمزة، في كلمة واحدة، وهي كلمة (شاء) هو 0.403ثا، وأن مدة المدّ المتوسط للألف نفسها هو 0.707ثا، وأن المدّ بأربع حركات من قبض الإصبع للكلمة نفسها أيضا هو 1.550ثا"[15].

بينما حسابه للمدّ المنفصل فقال فيه:"لكن هذه القيم الرقمية، لزمن المدود الثلاثة، تختلف عندما يكون المدّ منفصلا، كما في (يا أيها)، وذلك على النحو الآتي:مدة المدّ الطبيعي للألف في (يا) هو 0.703ثا، ومدة المدّ المتوسط للألف نفسها هو 0.895ثا، في حين أن مدة المدّ بأربع حركات، من قبض الإصبع هو 1.345ثا"[16]، وعلى هذا القياس يكون مقدار ست حركات أكثر بقليل من ذلك، ولقد بين لنا عبد الصبور شاهين فائدة المد وسبب تفاوت القراء في مدته بقوله:" تركيز النبر على مقطع معين ليعين ذلك على تحقيق همزة، أو إظهار حرف مشدد، أو ساكن في نهاية الكلمة، وهذا حين يكون المد مُشبَعا، فأما إن كان غير مُشْبع، أي: طبيعيا، فإن وظيفته أن يأخذ صوت العلة حقه في الأداء الصوتي، كما في قوله تعالى: {قَالَ اللّهُ هَذَا} [سورة المائدة آية :119]، فالألفات الثلاثة في هذه العبارة حركات مقطعية، يعتبر النبر فيها تحقيقا لوجودها في اللفظ كاملا، ولئن كان طول المد المشبع يتفاوت بين القراء، فما ذلك إلا لحرصهم على إثبات وجود صوت معين، خيفة أن يضيع في دَرْجِ القراءة"[17].

أما في قول الله تعالى: {وَمَحْيَايَ} [سورة الأنعام آية : 162]، فنجد ورشا قد أسكن الياء ومد بست حركات، في حالتي الوصل والوقف، كما قرأها بوجه ثانٍ وهو فتح الياء، وقرأ حفص بفتح الياء مع مد طبيعي،"ففتح الياء على أصلها؛ لئلا يلتقي ساكنان"[18]، بينما جمع ورش بين الساكنين،"وإنما صلح؛ لأن الألف حرف لين"[19]، وقام بمدّ الألف مدّا مشبعا للغاية التي ذكرها ابن جني بقوله: " فيجفو عليهم أن يلتقي الساكنان حشوا في كلامهم، فحينئذ ما ينهضون بالألف بقوّة الاعتماد عليها، فيجعلون طولها ووفاء الصوت بها، عوضا ممّا كان يجب لالتقاء الساكنين: من تحريكها، إذا لم يجدوا عليه تطرّقا، ولا بالاستراحة إليه تعلّقا"[20].

رابعا:البلاغة الصوتية للمدّ والقصر:

فالغاية من المدّ والقصر أن يؤمن اللبس بواسطتهما أثناء القراءة، بإظهار الأصوات على حقيقتها، وتجنب تغليب صوت على آخر، وعوضا عن التقاء الساكنين، وللحرص على"صوت اللين وطوله؛ لئلاّ يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام؛ لأنّ الجمع بين صوت اللين والهمزة كالجمع بين المتناقضين، إذ الأوّل يستلزم أن يكون مجرى الهواء معه حرّاً طليقا، وأن تكون فتحة المزمار حين النطق به منبسطة منفرجة، في حين أنّ النطق بالهمزة يستلزم انطباق فتحة المزمار انطباقا محكما يليه انفراجها فجأة، فإطالة صوت اللين مع الهمزة يعطي المتكلّم فرصة ليتمكن من الاستعداد للنطق بالهمزة التي تحتاج إلى مجهود عضوي كبير، وإلى عملية صوتية تباين كلّ المباينة الوضع الصوتي الذي تطلبه أصوات اللين"[21].

وللقصر والمدّ غاية جمالية تتمثل في تنويع الصوت أثناء القراءة، "وأن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدا أو غنَّةً أو ليناً أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها ؛ ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع؛ أو الإطناب والبسط؛ بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصوت"[22] في القراءة.

"قال ابن مهران: وهذا مذهب معروف عند العرب، لأنها تمدّ عند الدعاء وعند الاستغاثة، وعند المبالغة في نفي شيء، ويمدّون ما لا أصل له بهذه العلّة"[23].

فمدُّ الألف في فواصل الآيات يذكر أحيانا ويحذف تارة أخرى، وذلك حسب المقام، ومن ذلك قول الله تعالى: {وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا } [سورة الأحزاب آية : 66]، فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} [سورة الأحزاب آية : 67]؛ "بمدّ (الرسول) و(السبيل) مع أن القياس لا يقتضي المدّ، وهو لم يمدّ (السبيل) في أول السورة، وإنما قال: { وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} [سورة الأحزاب آية : 4]، والفرق بينهما أن آيتي المد هما من قول أهل النار وهو يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، كما أخبر عنهم ربنا بقوله {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا} [سورة فاطر آية : 37]، فالمقام هنا مقام صراخ ومدّ صوت فناسب المد، في حين أن الآية الأخرى ليست كذلك، وإنما هي قول الله مقررا حقيقة عقلية معلومة، قال تعالى: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ

وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } [سورة الأحزاب آية:4]، فالمقام لا يقتضي المدّ هاهنا بخلاف ذلك"[24].

وفي محنة أهل المدينة لما حاصرهم الكفار من كل جانب، فوصفهم الله تعالى بقوله {إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } [سورة الأحزاب آية : 10]، "فمدّ (الظنون) وأطلقها، وذلك لأنّهم ظنوا ظنونا كثيرة مختلفة، فأطلقها في الصوت مناسبة لتعددها وإطلاقها، ولو قال:(الظنون) لوقف على الساكن، والساكن مقيد، فناسب إطلاقُ الألف إطلاق الظنون، والمؤمنون هاهنا في موقف ضيق وخوف شديدين وزلزلة عظيمة، كما أخبر عنهم ربنا فغرتهم الظنون وشرّقوا وغرّبوا فيها؛ فأطلق الصوت مناسبة لإطلاق الظنون وتعددها، هذا علاوة على رعاية الفاصلة..."[25].

ولما كانت قسمة الكفار غير عادلة وغريبة، جاءت الآيات التي تبين ذلك بأغرب الأصوات لتوحي بشنيع فعلهم، ففي قول الله تعالى {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى} {تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى} [سورة النجم الآيات:21-22]، "فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصوّر في هيئة النطق الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدّين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية...إذ هي مقطعان: أحدهما مدٌّ ثقيل، والآخر مدٌّ خفيف، وقد جاءت عقب غُنتين في (إذاً) و(قسمة) وإحداهما خفيفة حادة، والأخرى ثقيلة متفشية، فكأنها بذلك ليست إلا مجاورةً صوتيةً لتقطيع موسيقي"[26].

وكان يعقوب -عليه السلام- ينتظر مجيء خبر يوسف -عليه السلام-، ومرت الأيام وهو على ذلك الانتظار والترقب حتى وصفه أهله بالجنون، ولكنها جاءت البشارة؛ فقال الله تعالى {فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [سورة يوسف آية : 96]، بدأت بمدّ طويل وكأنّها تعبّرعن صبر يعقوب وطول انتظاره، و"تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنّه كان منتظرا بقلق واضطراب"[27].

ومن صفات يوم القيامة التي تفرد بها القرآن الكريم في قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} [سورة النازعات آية : 34]، {فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ } [سورة عبس آية : 33] ؛ غلب عليها أصوات الاستعلاء فهي توحي بالقوة لتلك الألفاظ، كما جاءت بمد لازم يستغرق كل الأهوال والمحن التي تغشى الناس في ذلك اليوم، فالصاخة "لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها، وشقة للهواء شقّا، حتى يصل إلى الأذن صاخا مُلِحّا، والطامة لفظة ذات دويّ وطنين، تخيّل إليك بجرسها المدوّي أنها تطم وتعم، كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه"[28].

لقد بدأ الله تعالى بعض السور بحروف مقطعة، فلما نحسب هذه الحروف نجدها نصف حروف المعجم وهي أربعة عشر حرفا، وتحمل أنصاف صفات الحروف من المهموسة والمجهورة والشديدة والرخوة والمطبقة والمنفتحة والمستعلية والمنخفضة وكذا حروف القلقلة، "فوردت (ص و ق و ن) على حرف، و(طه و طس و يس وحم) على حرفين، و(الم و الر وطسم على ثلاثة أحرف، والمص والمر) على أربعة أحرف، و(كهيعص و حم عسق) على خمسة أحرف...هذا على إعادة افتنانهم في أساليب الكلام، وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوعة، وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك"[29]، "بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عم معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها...ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة"[30].

وجاءت كلها ممدودة مدّا مشبعا إلا حروف (طه) فبدأت بالطاء المستعلي لأنه من حروف الاستعلاء، فهذا المدّ والاستعلاء تمنح السامع وقتا كافيا لأن يتأمل هذه الأصوات ويستعد لما بعدها من معاني تحملها ألفاظ من جنس هاته الحروف، وتقول في لسان حالها للمعارض الجاحد: رُدّها عليّ إن استطعت.

وقال الله تعالى: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ } [سورة البقرة آية : 266].

لقد جاءت الألفاظ بصيغة الجمع منها: نخيل و أعناب و وأنهار و وثمرات، وكلها ممدود لتجعل المتأمل يتصور كل أنواع النخيل وأنواع الأعناب والأنهار وأصناف الثمار؛ ليتم المعنى في أكمل وجه لتلك الجنة، ومع ذلك يبحث المتأمل على نقائص فيها فتأتي المتممات التالية:

- "لما ذكر سبحانه الجنة لم يكتف بذكرها مجردة من كل قيد، لأن الجنة في اللغة لفظ يصدق على كل شجر متكاثف ملتف، يستر من يتفيأ بظلاله الوريفة، ومن هذا الشجر ما هو محدود النفع كالأثل والخمط وغيرهما من الأشجار التي لا تصلح إلا للحطب، ومنها ما يتضاعف نفعه فيؤكل ثمره، وتستخرج منه مواد أخرى نافعة، ثم يكون حطبه صالحا للوقود، فتمم ذلك النقص بقوله: (مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)، وفهم بالبداهة أن هذه الجنة تميزت بأن أشجارها من الصنف الثاني المتضاعف النفع، أي: أن احتراق تلك الجنة – ولو كانت تضم الأثل والخمط ونحوها مما هو محدود النفع- يشجي صاحبها، فكيف إذا كانت من نخيل وأعناب؟ ألا يكون الأسف عليها أشد؟ والشجا باحتراقه أعظم؟
- ثم تمم ذلك بذكر الأنهار الجارية للدلالة على ديمومة الخصب، إذ ما الفائدة منها إذا انضبت فيها الأمواه؟ ألا يكون مآلها اليبس والذبول؟
- ولدفع الإيهام يخيل إلى السامعين أن هذه الجنة قد تكون مقتصرة على هذين الضربين من الثمرات، وهما :النخيل والأعناب تمم بقوله: (لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) ، أي:أنها تجمع جميع أفانين الثمر، فالحسرة إذا على احتراقها أشد، والأسف على فنائها أعمّ"[31].
- لكن هذه الجنة التي جمعت كل صفات الكمال، ضعف صاحبها من الكبر وصار لا يستطيع رعايتها، فقال الله تعالى:(وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ) ، هنا يتوهم السامع ويجد حلا ويقول: لعل الأبناء يتولون أمرها فجاء التتميم قاطعا لذلك الوهم، بقوله: (وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء)، وجاءت لفظة (ضعفاء) بالمدّ المشبع لنتصور قدر الإمكان ذلك الضعف الذي ربما يكون جسديا أو عقليا .
- إذا صاحب الجنة أصابه الكبر والأولاد ضعفاء لا يستطيعون الإشراف عليها، ومع ذلك يتوهم السامع بأن يجد حلا ويقول: لعله يؤجر لها عمالا لتبقى الجنة تؤتي ثمار كل حين، ولكنه جاء التتميم سريعا و بفاء الاستئناف بقوله: (فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ) فكانت

اللفظة ممدود ليسرح العقل ويتصور تلك الرياح العاصفة التي تلوي السحب الثقال وتقلع المباني والأشجار، ومع ذلك يتوهم السامع لعله يقتلع بعض الأشجار ويسقط الثمار ثم ينصرف، و تعود الجنة كما كانت، ولكنه تمم بقوله (فِيهِ نَارٌ) ، إذا إعصار فيه برق شديد إن أصاب الصخر أحرقه وفتته فما بالك بالأشجار، ومع ذلك يتوهم السامع لعل هذه النار لم تصب الجنة، فجاء التتميم وبفاء الاستئناف قاطعا للشك بقوله تعالى: (فَاحْتَرَقَتْ)، أي لم يبق شيئا من تلك الجنة الغناء فصار رمادا تذروه الرياح ذروا.

فمن يودُّ أن يضعف بعد قوة ويصاب بالكبر ويؤتى ذرية لا تنفع نفسها ولا غيرها وبالتالي انقطعت سلالته وكأنه لم يكن، ونزع الإعصار الأشجار من جذورها فلما تكشفت جاءت النار فأتت عليها فذهب أثرها...

فأصيب في جسده وفي ذريته وجنته وهو على قيد الحياة لا يقدر على شيء، فاندثروا جميعا، {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ }.

قال الله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [سورة هود آية :44].

فإطلاق الصوت ومدّه بنداء الأرض أن تبتلع ماءها، فذلك المدّ يجعل السامع يستشعر هول الماء الذي كالجبال في ارتفاعه وأتي على القوم يجرفهم وما يملكون، فلا تسمع إلا ذلك الصراخ العريض بين أمواجه وهم يتقلبون، ثم جاء النداء الثاني إلى السماء التي انتهت بمدّ مشبع ليستغرق المفكر في تلك السماء التي اكتظت بالسحب الضخام والرّيح يلويها ويعصرها لتلد أنهار فتأتي على الظالمين من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

لقد بدأ الله تعالى بلفظ (قيل) كي لا يذكر الفاعل بل ذكر الحادثة لهولها وشدتها، ومن خلالها تعرف عظمة من أمر بها.

وغلب على ألفاظ الآية ألف المد والياء وهي أصوات جوفية، وكأن كل لفظة صارت تصرخ من أعماقها لشدة هول الحادثة، وينادي نوح عليه السلام: {قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ} [سورة هود آية :43].

لقد جاءت الآية متوازنة في مدودها حيث بدأت بلفظ به مدّ يائي طبيعي (قيل)، ثم بعد ست كلمات جاءت لفظة (غيظ)، ثم بعد ست كلمات أخرى جاءت لفظة (قيل)، ثم انتهت الآية بمد يائي وهو المد العارض للسكون في لفظة (الظالمين)، فزادت تلك المدود الألفاظ جمالا صوتيا لا مثيل له.

قال في هذه الآية ابن أبي الأصبع:"وما رأيت ولا رويت في الكلام المنثور والشعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحدا عشرين ضربا من البديع، وعددها سبع عشرة لفظة ...وتفصيل ما جاء فيها من البديع:

- المناسبة التامة في (أبلعى) و(أقلعى).
- والمطابقة اللفظية في ذكر السماء والأرض,
- والاستعارة في قوله: (أبلعى) و(أقلعى) للأرض والسماء.
- والمجاز في قوله:(يا سماء)، فإن الحقيقة : ويا مطر السماء أقلعى.
- والإشارة في قوله:(وغيض الماء) فإنه سبحانه وتعالى عبّر بهاتين اللفظتين عن معانٍ كثيرة؛ لأن الماء لا يغيض حتى يُقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج من عيون الماء فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء.
- والإرداف في قوله:(واستوت على الجودىّ) فإنه عبّر عن استقرار السفينة على هذا المكان وجلوسِها جلوسا متمكِّنا لا زيغ فيه ولا ميل، لطُمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة.
- والتمثيل في قوله:(وقضى الأمر) فإنه عبّر بذلك عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعدٌ ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الإرداف.
- والتعليل لأن غيض الماء علّةُ الاستواء.
- وصحّة التقسيم حين استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغَيض الماء الحاصل على ظهر الأرض.

- والاحتراس في قوله:(وقيل بعدا للقوم الظالمين) محترسا من توهم من يتوهم أن الهلاك ربّما عمّ من لا يستحق الهلاك، فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ليعلم أنهم مستحقوا الهلاك، فإن عدله منع أن يدعو على غير مستحقّ للدعاء عليه.
- والانفصال فإن لقائل أن يقول: إنّ لفظة القوم مستغني عنها، فإنه لو قيل:(وقيل بعدا للظالمين) لتمّ الكلام، والانفصال عن ذلك أن يقال: لما سبق في صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى: {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ} [سورة هود آية :38]، وقال سبحانه قبل ذلك مخاطبا لنوح عليه السلام:{وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ} [سورة هود آية :37] فاقتضت البلاغة أن يؤتَى بلفظ القوم التي آلة التعريف فيها للعَهد، ليتبين أنهم القوم الذين تقدّم ذكرهم في قوله تعالى: {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ، ووصفهم بالظلم، وأخبر بسابق علمه أنهم هالكون بقوله: {وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ }، فحصل الانفصال عن الإشكال وعلم أن لفظة القوم ليست فضلة في الكلام.
- والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ولا ينقص عنه، وحسُن النسق في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولا فأوّلا، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع، ثم عطف على ذلك أمرَ السماء بالإقلاع، ثم عطف غَيْضَ الماء على ذلك، ثم عطف على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين ونجاة الناجين، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجوديّ، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين، فجاء عطف هذه الجمل على الترتيب وقوعها في الوجود.
- وائتلاف اللفظ مع المعنى لكون كلّ لفظة لا يصلح في موضعها غيرها.
- والإيجاز لأنه سبحانه اقتصّ القصة بلفظها مستوعبة، بحيث لم يخلّ منها بشيء في أخصر عبارة، بألفاظ غير مطوّلة.
- والتسهيم لأن من أوّل الآية إلى قوله تعالى:(أقلعي) يقتضي آخرها.
- والتهذيب لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كلّ لفظة سهلة مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة، مع الخلوّ من البشاعة، والتركيب سليم من التعقيد

وأسبابه، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يُشكل عليه شيء منه.

- والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا مستدعاه.
- والانسجام وهو تحدر الكلام بسهولة وعُذُوبةِ سَبْك، مع جزالة لفظ كما ينسجم الماء القليل من الهواء، وما في مجموع ألفاظ الآية من الإبداع"[32].

وفي قوله تعالى: {فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } [سورة القصص آية :19]، فلقد بدأ الله تعالى الآية بمدّ طويل بسبب لفظة (أن) التي زادها "للدلالة على التريث والتمهل، وفصل بين (لما) والفعل للدلالة على الفاصل في الزمن وعدم الاندفاع، بخلاف المرة الأولى التي اندفع فيها فجة لنصرة صاحبه، ألا تري كيف قال في المرة الأولى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ } [سورة القصص آية :15]، فجاء بالفاء الّدالة على التعقيب وعدم المهلة بين الاستغاثة والطعنة"[33].

خامسا:الخاتمة:

فالغاية إذا من المدّ والقصر أن يؤمن اللبس بواسطتهما أثناء القراءة، بإظهار الأصوات على حقيقتها، وتجنب تغليب صوت على آخر، وعوضا عن التقاء الساكنين، وللحرص على صوت اللين وطوله؛ لئلاّ يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام، فيطغى أحدهما على الآخر...بالإضافة إلى الغاية الجمالية للمد والقصر، بتنوع الصوت بأدائهما أثناء القراءة... فهذه الأبعاد الصوتية أدّت في حد ذاتها دورا بلاغيا، وأوحت بمعاني الألفاظ قبل أن نترجمها لغويا، فالسّامع الأجنبي الذي لا صلة له باللغة العربية لما يسمع ترتيل القرآن الكريم يتأثر به، وكأنه فاهم له ومن أصحاب هذه اللغة، والشواهد كثيرة تثبت أن الكثير منهم دخل الإسلام بمجرد سماعه...

الهوامش:

[1].أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا.معجم مقاييس اللغة.تحقيق وضبط:عبدالسلام محمد هارون؛دمط:دار الفكر للطباعة والنشر؛ دس؛ درط؛ ج5؛ص:269.

[2]–سعاد عبد الرحمن.تيسير الرحمن في تجويد القرآن؛دار التقوى للنشر والتوزيع؛ دس؛ درط.؛ص207.

[3]–غانم القدوري الحمد.الدراسات الصوتية عند علماء التجويد؛دارعمار للنشر والتوزيع الأردن؛ سنة: 1428هـ /2007م؛ط2؛ص 430.

[4].سعاد عبد الرحمن.تيسير الرحمن في تجويد القرآن.مرجع سابق؛ص 208.

[5].ملا علي بن سلطان محمد القارى.المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية؛دمط:شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر؛ سنة:1367هـ /1948م؛الطبعة الأخيرة؛ص54.

[6]–عطية قابل نصر.غاية المريد في علم التجويد ؛الرياض السعودية ؛سنة 1412هـ؛ ط3.؛ص91

[7]–أبو الخير محمد بن محمد ابن الجزري.النشر في القراءات العشر.ضبطه وعلّق عليه:الشيخ أنس مهرة؛ دار الكتب العلمية بيروت لبنان؛ سنة1420:هـ /2000م؛ ط2؛ص313.

[8].سمير شريف استيتية.القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية؛عمان:عالم الكتب الحديث الأردن؛ سنة:2005م؛ ط1؛ص191.

[9].محمد محمود عبدالله.كيف تجود القرآن الكريم؛ مكتبة القدسى للنشر والتوزيع؛ سنة: 1417هـ /1996م؛ ط1؛ص8.

[10].أبو الفتح عثمان بن جني.سر صناعة الإعراب. دراسة وتحقيق:د.حسن هنداوي؛ دمشق: دارالقلم ؛ سنة:1413هـ /1993م؛ ط2؛ج3؛ص17.

[11].أبو الفتح عثمان بن جني.الخصائص.تحقيق:محمد عي النجار؛دمط:دار النشر المكتبة العلمية مصر؛ سنة:1371هـ /1952م؛ ط2؛ص125.

[12].المرجع السابق نفسه؛؛ص126.

[13].إبراهيم أنيس.الأصوات اللغوية . مطبعة نهضة مصر؛ درط؛ دس؛ص86/85.

[14].غانم القدوري الحمد.الدراسات الصوتية عند علماء التجويد .مرجع سابق؛ص451.

[15].سمير شريف استيتية.القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية .مرجع سابق؛ص96.

[16].المرجع السابق نفسه؛ص96.

[17].عبد الصبور شاهين.أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي أبو عمرو بن العلاء؛القاهرة:دار النشر مكتبة الخانجى؛سنة: 1408هـ/1987م؛ ط1؛ص116.

[18].أبو عبد الله بن خالويه.إعراب القراءات السبع وعللها.تحقيق:د.عبدالرحمن بن سليمان القاهرة:دار النشر مكتبة الخانجى؛ سنة: 1413هـ/1992م؛ ط1؛ج1؛ص174.

[19].المرجع السابق نفسه؛ص174.

[20].أبو الفتح عثمان بن جني.الخصائص .مرجع سابق؛ص125.

[21].إبراهيم أنيس.الأصوات اللغوية؛ مطبعة نهضة مصر؛ درط؛ دس؛ص85 وما بعدها.

[22].مصطفى صادق الرافعي.إعجاز القرآن والبلاغة النبوية؛ بيروت: دار الكتاب العربي؛ سنة: 1427هـ /2006م؛ط8؛ص149.

[23]. جلال الدين السيوطي.الإتقان في علوم القرآن.تحقيق:الشيخ شعيب الأرنؤوط؛دمط:مؤسسة الرسالة ناشرون؛سنة:1429هـ /2008م)؛ ط1، ص:207.

[24].فاضل صالح السامرائي.بلاغة الكلمة في التعبير القرآني؛القاهرة:شركة العاتك لصناعة الكتاب؛سنة:1427هـ -2006م؛ ط2؛ص34.

[25].المرجع السابق نفسه؛ص34.

[26].مصطفى صادق الرافعي.إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .مرجع سابق؛ص 158 وما بعدها.

[27].المرجع السابق نفسه؛ ص159.

[28].سيد قطب.التصوير الفني في القرآن،القاهرة:دار الشروق،سنة:1425هـ/ 2004م؛ ط17؛ ص:93.

[29] .محمود بن عمر الزمخشري.الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل.تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ورفقاؤه؛مكتبة العبيكان؛ط1 سنة:1418هـ/ 1998م؛ج1؛ص:139 وما بعدها.

[30] .إسماعيل بن كثير.تفسير القرآن العظيم.تحقيق:مصطفى السّيد محمد ورفقاؤه،مؤسسة قرطبة؛ سنة:1421هـ 2000م؛ج1، ط1؛ ص:256 وما بعدها.

[31]. محي الدين الدرّويش.إعراب القرآن الكريم وبيانه؛دمشق- بيروت: اليمامة ودار ابن كثير للطباعة والنشر؛ سنة:1420هـ 1999م؛ط7؛ج1؛ص:356 وما بعدها.

[32] .ابن أبي الأصبع ؛بديع القرآن.تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف؛نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع:دسط؛ درط؛ص:340.

[33]. فاضل صالح السامرائي.التعبير القرآني؛عمان:دار عمار؛ سنة:1427هـ/2006م؛ ط4؛ ص:107.